﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَآءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ [النجم: 36 - 44]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تنبيهٌ جامعٌ بين الوعظِ والتَّهويلِ

لَمّا كان الغبيُّ - الذي تولّى، وأعطى قليلًا، وأكدى - قد يظنُّ أنَّ عملَ غيره ينفعه؛ نبَّهه الله على خطئه في إمساكه عن البرِّ، وقَبول قول صاحبه: أنا أتحمَّلُ ذنوبَك كلَّها، وعبَّر عنه جامعًا للوعظ والتهويل، بقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صُحُفِ﴾: أصلُ (صحف) يدلُّ على انبِساطٍ في شَيءٍ وسَعَةٍ، ومنه الصَّحيفَةُ: المبسوطُ من الشيء، كصحيفة الوجه، ومنه الصَّحيفَةُ: وهيَ الَّتي يُكْتَبُ فيها، وجمعها صَحائِفُ، وصُحُفٌ[2]، وقد كانتْ صحفُ الكتابة قديمًا ألواحًا طينيةً وعظامًا ذات وجه عريض وأحجارًا كذلك، ثم رُقَعًا جلديَّة، ثم اتُّخِذَ الورق[3]، ومعنى ﴿صُحُفِ مُوسَىٰ﴾: هيَ أسفار التَّوراة، وصُحُفُ إبراهيمَ: صُحُفٌ سَجَّلَ فيها ما أوْحَى اللّه إلَيْه[4].

2) ﴿وَفَّىٰٓ﴾: وفَى: كَلِمَةٌ تَدُلُّ على إكمالٍ وإتمام، مِنهُ الوَفاءُ: إتمامُ العَهْدِ وإكمالُ الشَّرطِ، ويَقولونَ: أوفَيْتُكَ الشَّيءَ؛ إذا قَضَيتَهُ إيّاهُ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 105، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 71.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صحف).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صحف).
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 21/ 65، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 129.

وافيًا، وتَوَفَّيْتُ الشَّيءَ، واستَوفَيتُهُ؛ إذا أخَذتَهُ كُلَّهُ، حَتَّى لَم تَترُكْ مِنهُ شَيئًا، ومِنهُ يُقالُ لِلمَيِّتِ: تَوَفّاهُ اللّه[1]، ووفَّى الشَّخْصُ بالوعْد: حافظَ عليه، وعملَ به، وأتمَّه، وأنجزه[2]، ومعنى ﴿وَفَّىٰٓ﴾ في الآية: بلَّغ ما أُمر به، وقامَ بجميع ما فُرِضَ عليه، فلم يخرمْ منه شيئًا[3]، وهي في مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: 124]، من قوله تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: 124]، وأتمَّهنَّ، أي: بَلَّغَهُنَّ إلَى قَوْمِهِ ومَن آمَنَ بِهِ[4].

3) ﴿تَزِرُ﴾ - ﴿وَازِرَةٌ﴾ - ﴿وِزۡرَ﴾: الوِزْر: الحِمْلُ الثَّقيلُ مِنَ الآثام والذُّنوب[5]، والأصلُ في معنى الواوِ والزّاي والرّاءِ ثِقْلُ الشَّيءِ، فهوَ متعلِّقٌ بالحَمْلِ[6]، ثُمَّ عبَّر عنهُ بالذُّنوب والآثام؛ تشبيهًا بثِقْلِ الجبلِ، فهوَ يُثقِلُ صاحبَه[7]، فمعنى قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام: 164]، أي: لا تَحمِلُ نفسٌ آثمةٌ، وِزْرَ نفسٍ أخرى، ولكن كلٌّ يُجزى بما كَسَبَ، والآثام تُسمَّى أوزارًا؛ لأنَّها أحمالٌ مثقلةٌ، واحدها وِزْرٌ[8]، وهو كمعنى قوله هنا: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾: أي لا يؤاخذُ أحدٌ بذنبِ أحد[9].

4) ﴿سَعَىٰ﴾: السَّعْيُ المَشيُ السَّريعُ، وهو دونَ العَدْوِ، سَعى الرَّجلُ: أي: عدا، وعمل، وكسب، ويُستَعملُ لِلجِدِّ في الأمرِ، خَيرًا كانَ أو شَرًّا، قال تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ [البقرة: 114]، وأكثرُ ما يُستَعملُ السَّعْيُ في الأفعال المحمودة[10]، "والمُرادُ هُنا: عَمَلُ الخَيرِ بقَرينَةِ ذِكْرِ لامِ الاختِصاصِ، وبأن جُعِلَ مُقابِلًا لِقَولِهِ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾"[11].

5) ﴿ٱلۡأَوۡفَى﴾: بيَّنّا معناه في اللغة في معنى مفردة ﴿وَفَّىٰٓ﴾، و﴿ٱلۡأَوۡفَى﴾ اسْمُ تَفْضيلٍ مِنَ الوَفاءِ، وهوَ التَّمامُ والكَمالُ، والمَعْنَى: أنَّ الجَزاءَ على الفِعلِ مِن حسنٍ أو سيّئٍ موافِقٌ للمجْزيِّ عَلَيهِ، ويُجازى جزاءً كاملًا غير منقوص[12].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: 3/ 2475.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 544، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 113.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 130.
(5) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (وزر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وزر).
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وزر).
(8) الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/ 207.
(9) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 543.
(10) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (سعى).
(11) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 132.
(12) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 140، والزحيلي، التفسير المنير: 27/ 130.

6) ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾: من (نهي) وأصْله يَدُلُّ على غايَةٍ وبُلوغٍ، ومِنهُ أنهَيْتُ إلَيهِ الخَبَرَ: بَلَّغْتُهُ إيّاهُ، والنِّهايَة: غايَةُ كُلِّ شَيءٍ وآخِرُهُ، والمنتهى: مُفتَعَلٌ مِنَ النِّهايَة: الغايَة[1]، ومعنى ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ في الآية، أي: انتهاءُ جميع الخلقِ ومرجعهم ومردِّهم ومصيرهم إلى الله، فيعاقب، ويثيب[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تذكيرُ المعرض عن الحقِّ بما جاء في صحفِ إبراهيم وموسى عليهما السلام

يقول تعالى ذكره: أمْ لم يُخَبَّرْ هذا الذي رجعَ عن إسلامه - بضمان صاحبه له أنْ يتحمَّل عنه العذاب في الآخرة - بالذي في صحفِ موسى عليه السلام وإبراهيم الذي وفَّى طاعةَ الله ورسالاته إلى خلقه، وبلَّغ ما أُمِرَ به، بأنَّه لا يُؤاخذُ أحدٌ بذنبِ أحد، ولا يُجازي عاملٌ إلّا بعمله، فلا يُحَصِّلُ مِنَ الأجْرِ إلّا ما كسبَ هو لنفسه، خيرًا كان ذلك أو شرًّا، وأنَّ عملَ كلِّ عاملٍ سوف يراه يومَ القيامة، ثم يثابُ بسعيه ذلك الثوابَ الأوفى، وأنَّ إلى ربِّك يا محمَّد انتهاءُ جميع خلقه ومرجعهم، وهو المجازي جميعهم بأعمالهم، صالحهم وطالحهم، ومحسنهم ومسيئهم، وأنَّ ربَّك خلقَ في عباده الضحك والبكاء وسببهما، فأضحكَ من شاء، وأبكى من شاء، وأنَّه هو أماتَ مَن ماتَ مِن خلقه، وهو أحيا مَن حَيا منهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الإضراب الانتقالي بـ﴿أَمْ﴾:

إضرابُ إنكارٍ وتعجُّبٍ من جهلِ المعرضِ بما جاء في صحف إبراهيم وموسى

﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ منقطعة بمعنى: بل وهمزة الاستفهام، أي: بل ألم ينبَّأ؟ أهو جاهلٌ لم يُخبَرْ ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾[4]، وهي لإضراب الانتقال إلى متعجِّبٍ منه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نَهَيَ).
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 547، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 115.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 543 - 548، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 465 - 466.
(4) ابن عادل، اللباب: 18/ 201، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 162.

وإنكار عليه آخر، وهو جهله بما عليه أنْ يعلمه الذين يخشون الله تعالى من علم ما جاء على ألسنة الرُّسل الأوَّلين، فإنْ كان هو لا يؤمنُ بمحمد ﷺ فهلّا تطلَّبَ ما أخبرتْ به رسلٌ من قبل، طالما ذكرَ هو وقومه أسماءهم وشرائعهم في الجملة[1].

بلاغة الاستفهام المقدَّر بعد ﴿أَمْ﴾:

الاستِفهامُ المُقَدَّرُ بَعدَ ﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ استفهامٌ إنكاري، مثل الاستفهام المذكور قبلها، في قوله: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾، والتَّقدير: (بل ألم ينبَّأ بما في صحف موسى) [2]، ويحملُ هذا الاستفهام الإنكارَ والتعجيب من جهل الذي تولّى بما جاء في صحف إبراهيم وموسى، وظنِّه الغبي بأنَّه يمكن لأحدٍ أن يتحمَّل عنه العذاب في الآخرة.

استِفهامٌ يحملُ الإنكارَ والتَّعجيب من جهل المُعرض وغبائه

دلالة النفي بـ ﴿لَمْ﴾:

﴿لَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ حرفُ جزم ونفي دخلَ على الفعل المضارع ﴿يُنَبَّأْ﴾، فنقله إلى معنى النفي في الماضي، وأفادَ النفيَ الجازمَ بأن يكون قد أُخبِرَ سابقًا بما في صحفِ موسى وإبراهيم ﷺ مع تأكيدِ التحقُّق، ممّا يعطي معنى الإنكار الشديد والتعجيب من جهل المخاطَب بما في هذه الصُّحف، وكأنَّه لم يُخبرْ بها أصلًا مع أنَّ ذلك معلومٌ لدى أهل العلم.

نفيٌ جازمٌ أفادَ زيادةَ التعجيب والإنكار

دلالة بناء الفعل ﴿يُنَبَّأْ﴾ للمفعول:

عبَّر البيانُ الإلهي بصيغةِ المبني للمفعولِ ﴿يُنَبَّأْ﴾؛ لأنَّ الأهمَّ هو التركيزُ على المضمون وإبرازُ عظمته، وهو العلمُ بما في صحف موسى وإبراهيم، ولأنَّ المقصودَ هنا ليس فاعلًا بعينه، وهو المبلِّغُ الذي نقلَ الخبر، بما يشعرُ باشتهار هذا المعنى حتى

اشتهارُ مضمون ما في الصحف مع إعراض المشركين يستلزمُ توبيخهم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 129.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 129.

لكأنَّ من المستحيل أو المتعسِّر حصر فاعليه، وهذا فيه زيادةُ توبيخٍ على إعراضهم.

معنى (الباء) ودلالتها:

تعاليمُ باقيةٌ لم تنفكَّ عن صحفِ إبراهيم وموسى

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ للإلصاق، والمعنى: أمْ لم يُنبَّأ بالتعاليم الملتصقة التي لا تنفكُّ عن صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، بما يشيرُ إلى أنَّ هذه التعاليم ما زالتْ موجودةً إلى زمان النبي ﷺ، ومِنْ ثَمَّ المبالغة في توبيخِ المعرضين عن الحقِّ.

الغرض من التَّعبير بـ (ما) الموصولة:

إبهامٌ يفيدُ التَّفخيمَ والتَّشويقَ لِما سيفصَّل بعدُ

(ما) في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ اسم موصول، والتَّقدير: أمْ لم ينبَّأ بالَّذي في صحف موسى، والتَّعبيرُ بالموصول لقصدِ الإبهام؛ تفخيمًا لشأنها وتشويقًا لِما فُصِّل بعد ذلك من قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ وما بعده من الأمور المذكورة.

معنى حرف الجر ﴿فِي﴾ ودلالته:

تعاليمُ ومواعظُ عظيمةٌ مستقرَّةٌ داخلَ هذه الصحف

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ يفيدُ الظَّرفيَّةَ الحقيقيَّة، والمعنى: أنَّ التعاليمَ والمواعظ - وهي ماذكرتها الآيات: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ - مستقرَّةٌ داخلَ هذه الصُّحف الَّتي أُنزلت على موسى وإبراهيم عليهما السلام.

الغرض من الإضافة، ودلالة جمعها:

إضافةُ بيانٍ تحملُ المزيدَ من الإنكار على جهلِ المخاطَب

إضافةُ ﴿صُحُفِ﴾ إلى ﴿مُوسَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ إضافةٌ بيانيَّةٌ، بيَّنت أنَّ هذه الصحف هي صحفُ موسى خاصَّة، وليست أيَّ صحف، وأنَّ الإنكارَ على المخاطَب لجهله بما صحف موسى المعروفة والمشهورة عندهم، والتَّعبيرُ بالجمع؛

لكونها صحفًا كثيرة لقوله تعالى: ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: 154]، وقوله: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: 150]، وكلُّ لوحٍ صحيفة[1].

سرُّ تخصيص هذه الصُّحف بالذِّكر:

الجهلُ بما جاء في صحفٍ قريبةٍ أفظعُ وأعجب

خَصَّ اللهُ تعالى صحفَ إبراهيم وموسى - عليهما السلام - بالذِّكر؛ لأنَّ الرجلَ ما بعد نوح إلى زمن إبراهيمَ كان يُؤخَذُ بجريرةِ أخيه وابنه وأبيه، فأوَّل من خالفهم إبراهيمُ عليه السلام، وقرَّرَ ذلك موسى، ولم يأتِ قبله مقرِّرٌ مثله عليه السلام[2]، ولأنَّ شريعةَ إبراهيم كانت معروفةً عن العرب، ويسمّونها الحنيفيَّة، ويدَّعي المشركون أنَّهم على شريعة أبيهم إبراهيم، وكذلك أهلُ الكتاب كانوا يدَّعون أنَّهم متَّبعون ما في التوراة، والعربُ يخالطون اليهودَ، وصحفها قريبةُ العهد منهم، ومن عدا العرب وأهل الكتاب لا متمسِّكٌ لهم ولا سلفٌ في نبوَّة محقَّقةٍ ولا شريعةٍ محفوظة[3].

سرُّ تقديمِ صحف موسى على إبراهيم عليهما السلام:

صحفُ موسى عليه السلام أقربُ وأشهرُ وأكثرُ

قدَّم البيانُ القرآني هنا صحفَ موسى خلافًا للترتيب الزمني؛ لكون التوراة أعظمَ كتابٍ بعدَ القرآن، وهو موجودٌ بين الناس يمكنُ مراجعته[4]، فصحفُ إبراهيم كانت بعيدة، وكانت المواعظُ فيها غيرَ مشهورةٍ فيما بينهم، كصحف موسى التي هي أقربُ وأشهرُ وأكثر[5]، فقد اشتهرتْ بسعة ما فيها من الهدى والشريعة، وأمّا صحفُ إبراهيم؛ فكان المأثور منها أشياء قليلة، وقُدِّرت بعشر صحف، أي: مقدار عشر ورقات بالخط القديم، تسع الورقة قرابة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 274.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 113، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 65.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 72، والهرري، حدائق الروح: 28/ 163، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 130.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 71.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 163، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 65، والزحيلي، التفسير المنير: 27/ 129.

أربع آيات من آي القرآن بحيث يكون مجموع ما في صحف إبراهيم مقدار أربعين آية[1].

توجيه المتشابه اللفظي بين تأخير صحف إبراهيم، وتقديمها:

من أسلوبِ القرآنِ الكريم وبلاغته مراعاةُ السّياق والمقام

في سورة النَّجم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾، قدَّم البيانُ الإلهي صحفَ موسى على صحف إبراهيم، بينما في سورة الأعلى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [الأعلى: 18 - 19]، قدَّم صحفَ إبراهيم عليه السلام؛ مراعاةً للسياق في السورتين، ففي (الأعلى) وقعتا بدلًا من الصحف الأولى، فقدَّم في الذِّكر أقدمهما، بينما في النَّجم أخَّرَ ذِكرَ صحف إبراهيم؛ ليقعَ ما بعدها - وهو قوله: ﴿ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ - جامعًا لِما احتوتْ عليه صحف إبراهيم من قوله: ﴿*وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: 124][2]، وأيضًا فإنَّ السياق في سورة الأعلى لمجرَّد الإخبار والإنذار، فذكرَ فيه على ترتيبِ الوجود صحف إبراهيم قبل صحف موسى في الإنزال، وأمّا في النَّجم؛ فالمقصود بيانُ انتفاءِ الأعذار، فإن كان الكلامُ مع أهل الكتاب؛ فقدَّم كتابهم، وإن كان الخطابُ عامًّا؛ فصحفُ موسى عليه السلام كانت كثيرةَ الوجود، وأشهرَ عندهم، فقدَّمها، وكذلك هو من باب الترقّي من الأقرب إلى الأبعد؛ لكون الأقرب أعرفَ، كما أنَّ موسى صاحبُ كتابٍ حقيقةً بخلاف إبراهيم عليه السلام؛ إضافةً إلى مراعاة الفاصلة[3].

دلالة العطف بالواو في ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾:

توراةُ موسى عليه السلام مقرِّرةٌ لِما جاء في صحف إبراهيم

عطفَ البيانُ القرآنيُّ (إبراهيم) على ﴿مُوسَىٰ﴾ بالواو في قوله: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾، والتقدير: (وبما في صحف إبراهيم) [4]،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 129 - 130.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 129 - 130.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 275، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 163.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 162.

بجامع أنَّ ما جاء من قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وما بعده موجودٌ في صحفِ إبراهيم وموسى.

بلاغة الإيجاز بحذف الصحف مع إبراهيم عليه السلام:

إيجازٌ في التَّعبير وإلماحٌ إلى عدمِ شهرة صحف إبراهيم

المضافُ إلى إبراهيم عليه السلام، وهو ﴿صُحُفِ﴾ محذوفٌ، والتقدير: وبما في صحف إبراهيم[1]، بدليل مجيء ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ مجرورًا بالفتحة؛ لأنَّه ممنوعٌ من الصرف، وهذا الحذفُ للاختصار والإيجاز؛ لكونه معلومًا من السياق، وفيه أيضًا إلماحٌ إلى عدمِ شهرة صحف إبراهيم عليه السلام.

نكتة ذِكر الاسم العَلَم لموسى وإبراهيم عليهما السلام:

تصريحٌ يحملُ التشريف للصحف، والحجَّة على المشركين، والتعريض باليهود

في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾، صرَّح البيانُ القرآني بالاسم العَلَم لموسى وإبراهيم - عليهما السلام - لإفادة التعريف والتخصيص لهذه الصحف، وبيان علوِّ شأنها بإضافتها إلى موسى وإبراهيم - عليهما السلام - فكما أنَّ موسى وإبراهيم معروفان عند المشركين وعند أهل الكتاب، فينبغي أن تكون صحفهما وما ورد فيهما معروفةً؛ ممّا يجعل هذا حجَّة عليهم، وفيه توبيخٌ لجهلهم بما جاء فيها، وتعريضٌ بأهل الكتاب؛ لأنَّ ما يكذِّبونه ممّا جاء به النَّبيُّ ﷺ موجودٌ في كتبهم، بالإضافة إلى أنَّه لم يجرِ لموسى وإبراهيم - عليهما السلام - ذكرٌ في الآيات التي سبقتْ هذه الآية حتى يأتي بضميرهما، فكان لابدَّ من التصريح باسمهما؛ ليحصلَ البيان.

الغرض من التعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِي﴾:

تشويقٌ إلى استحقاقِ إبراهيم عليه السلام بالمدح بالوفاء

في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ عبَّر البيانُ القرآني بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾ في وصف إبراهيم عليه السلام ولم يقلْ: (وإبراهيم الموفّي)؛ للإيماء إلى سببِ استحقاقه الاختصاصَ بهذا الوصف

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 162.

ومدحه عليه، وهو الوفاءُ والتوفية، كما أنَّ في الموصول إبهامًا ينبِّه، ويشوِّق إلى الصلة بعده، وهو مبالغةُ إبراهيم ﷺ في الوفاء.

دلالة التعبير بالفعل الماضي المضعَّف ﴿وَفَّىٰٓ﴾:

تحقُّقُ الوفاء من إبراهيمَ وبلوغُهُ غايةَ الوفاء

في التَّعبير بالفعل الماضي ﴿وَفَّىٰٓ﴾ دلالةٌ على تحقُّقِ فعل الوفاء وتأكُّده ووقوعه من إبراهيم ﷺ وفي التعبير بالفعل مضعَّفًا؛ دلالةٌ على مبالغة إبراهيم في الوفاء بما عاهدَ اللَّهَ عليه[1]، حتى بلغَ غاية الوفاء[2]؛ إذ التَّشديدُ يأتي للتكثير والمبالغة، فالتكثيرُ باعْتبار كثرة المَفعول، وهي الكثرة بحسَبِ الكمِّ، فهو وفَّى، وأتمَّ ما التزمه، أو أُمِر به، وإمّا باعتبار المُبالَغَة في الفعْل، وهي الكثرة بحسَبِ الكَيْف، أي: بالغَ في الوفاء[3].

الغرض من حذف متعلّق ﴿وَفَّىٰٓ﴾:

وفاءُ إبراهيم ﷺ كان عامًّا وكثيرًا

حذفَ البيانُ القرآنيُّ متعلِّق ﴿وَفَّىٰٓ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾؛ إفادةً للعموم[4] والكثرة؛ ليتناول كلَّ وفاءٍ وتوفية من إبراهيم ﷺ ويشملَ توفياتٍ كثيرة منها ما في قوله تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: 124]، وما في قوله تعالى: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ [الصافات: 105] وغيرها[5]، ونعم ما قيل هنا: ﴿وَفَّىٰٓ﴾ ببذلِ نفسه للنيران، وقلبه للرحمن، وولده للقربان، وماله للضيفان[6].

سرُّ تخصيص إبراهيم بهذا الوصف:

تخصيصُ إبراهيمَ بخُلُقِ الوفاء لاحتماله ما لم يحتملْه غيره

خُصَّ إبراهيمُ ﷺ بقوله: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾؛ لاحتماله ما لم يحتملْه غيره، كالصبر على نار نمرود، وعلى ذبح الولد، وعلى سعيه لإكرام الضيفان، أو الصوم، وعلى الهجرة، وعلى ترك أهله

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 161، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 162.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 71.
(3) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 18/ 295.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 162.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 129 - 130.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 163.

وولده بوادٍ غير ذي زرع، ولكون وفاء إبراهيم موضع اتِّفاق بين اليهود والمشركين والمسلمين، بينما كان المشركون يتوقَّفون في وصف موسى عليه السلام[1]، ولكون وصف إبراهيم بذلك تسجيلًا على المشركين؛ بأنَّ إبراهيم بلَّغَ ما أوحي إليه إلى قومه وذرّيَّته، ولكنَّ العرب أهملوا ذلك، واعتاضوا عن الحنيفية بالإشراك[2].

موقع قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ممّا قبله ودلالته:

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ عمّا قبله؛ لكونه جملةً مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: ما في صحفهما؟ فأجيب: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾[3]، أو لكون قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تفسيرًا لما في الصحف، أي: بدلًا عن (ما) في قوله: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ﴾، وتقديره: أم لم ينبَّأ بألّا تزر وازرة وزر أخرى[4].

استئنافٌ بياني أو تفسيرٌ لِما في الصحف

دلالة (أن) بين المخفَّفة والثَّقيلة والتَّفسيريَّة:

﴿أَلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ عبارة عن (أنْ) و(لا)، ويحتملُ أنْ تكون (أنْ) مخفَّفة من الثقيلة، وتكون الجملةُ بدلًا مفصَّلًا من مجمل، وهو (ما) في قوله: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾، والتقدير: أم لم ينبَّأ بأنَّه لا تزرُ وازرة وزر أخرى، ويحتملُ أن تكون (أنْ) تفسيريَّة فسَّرتْ ما في صحفِ موسى وإبراهيم؛ لأنَّ ما في الصحف شيءٌ مكتوب، والكتابةُ فيها معنى القول دون حروفه، فصلح (ما في صحف موسى)؛ لأنْ تفسِّره (أنْ) التفسيرية[5].

بـدلٌ يفصِّلُ إجمال ما في الصحف أو يفسِّره

دلالة النفي بـ (لا):

آثرَ البيانُ القرآنيُّ النَّفي بحرفِ (لا) في قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ

حملُ أحد عن أحدٍ أيَّ إثمٍ منتفيٌ في الماضي والحال والمآل

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 275، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 161، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 162.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 129 - 130.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 161، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 65.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 275، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 72.

(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 163، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 129 - 130.

﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ لأنَّ من معاني (لا) أنَّها تخلِّصُ المضارعَ للمستقبل، فالنفيُ فيها أبلغ، ومن ثمَّ فانتفاءُ أنْ تحملَ نفسٌ عن نفسٍ أيَّ إثمٍ هو انتفاءٌ في الحال والمآل، وبما أنَّ هذا الحكم موجودٌ في صحف إبراهيم وموسى، أي: قبل وقوع الحادثة في زمن النبي ﷺ فإنَّ انتفاءَ أن يحملَ أحدُ المشركين عن الآخر أيَّ إثمٍ يشملُ قبل التَّولّي وبعده.

دلالة التعبير بالمضارع المنفي ﴿تَزِرُ﴾:

انتفاءُ حمْلِ أيِّ نفسٍ وِزرَ أخرى على الـدوام والاستمرار

دلَّ صوغُ الفعل ﴿تَزِرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ بصيغة المضارع المنفي على استمرار هذا النفي وتجدُّده، أي: انتفاءُ حمْلِ أيِّ نفسٍ وزرَ أخرى على الدَّوام والاستمرار، وفي أيِّ وقت من الأوقات مهما امتدَّ الزمان.

الغرض من تنكير ﴿وَازِرَةٌ﴾ و﴿أُخْرَىٰ﴾ وتأنيثهما:

لا تـزرُ أيُّ نفسٍ وزرَ نفسٍ أخرى

تنكيرُ لفظ ﴿وَازِرَةٌ﴾ و﴿أُخْرَىٰ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ لإفادة العموم؛ لوقوعهما في سياق النفي، والمعنى: ألّا تزر أيُّ نفسٍ وزرَ أخرى[1]، فيشمل نفيَ ما زعمه الوليد بن المغيرة من تحمُّل الرجل عنه عذاب الله، وغيره[2]، وتأنيث ﴿وَازِرَةٌ﴾؛ لتأويلها: (نفس وازرة)، أي: مكلَّفة بالوزر، وكذلك تأنيثُ أخرى، والمعنى: لا تحملُ نفسٌ من شأنها الحِملُ حِملَ نفسٍ أُخْرَى[3].

بلاغة التعبير بجناس الاشتقاق في ﴿تَزِرُ﴾، ﴿وَازِرَةٌ﴾، ﴿وِزْرَ﴾:

جـمـالـيَّـةٌ في السمعِ وترسيخٌ لـلـمـعـنـى في الذهن

بين الألفاظ ﴿تَزِرُ﴾، ﴿وَازِرَةٌ﴾، ﴿وِزْرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ جناسُ اشتقاقٍ؛ إذ تكرَّرت المادةُ اللغوية (وزر)، بأشكالٍ مختلفة مع تنوُّع المعاني، فلفظُ ﴿تَزِرُ﴾ جاء فعلًا مضارعًا بمعنى (تحمل)، ولفظ ﴿وَازِرَةٌ﴾ أتى اسمَ فاعل بمعنى الحاملة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 72.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 131.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 163، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 131.

للوزر، ولفظ ﴿وِزْرَ﴾ أتى مفعولًا به بمعنى الإثم أو الحمل الثقيل، وهذا التكرار يعطي جماليةً في السمع، ويحقِّقُ عذوبةً وترنُّمًا، بما يحملُ السامعَ على الإصغاء، ويزيدُ المعنى وضوحًا، ويساعدُ على ترسُّخه في الذِّهن، ويؤكِّد أنَّه لا أحدَ يحملُ عن أحدٍ حمْله الثقيل.

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ إمّا عطفٌ على قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾؛ لأنَّ كلا الأمرين - وهما: عدمُ انتفاعِ الإنسانِ بعملِ غيرِه من حيثُ جلبُ النفعِ إليه، وعدم مؤاخذته بذنب غيره - ممّا في صحف إبراهيم وموسى[1]، أو عطفٌ على المجرور بالباء، أي: على قوله: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾، والمعنى: (أم لم ينبَّأ بما في صحف موسى، وبأنْ ليس للإنسان ما سعى)، وبهذا الجمع على الاحتمالين يظهرُ أنَّ المسيءَ لا يجدُ بسببِ حسنة الآخر ثوابًا، ولا يتحمَّلُ عنه أحدٌ عقابًا[2].

المسيءُ لا يجدُ بسببِ حسنةِ الآخر ثوابًا، ولا يتحمَّلُ عنه أحدٌ عقابًا

دلالة (أنْ) بين المخفَّفة والتفسيريَّة:

(أنْ) في قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ يحتملُ أنْ تكون المخفَّفة من الثَّقيلة، فتكون الجملةُ عطفًا على المجرور بالباء، أي: على قوله: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾، ويحتملُ أن تكون (أنْ) تفسيريَّةً، فتكون عطفًا على ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وعلى كلا الاحتمالين تكون (أنْ) تأكيدًا لنظيرتها في المعطوف عليها[3].

في المخفَّفة والتفسيريَّة تأكيدٌ للمعطوف عليه

سرُّ إيثار النفي بـ﴿لَّيْسَ﴾:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التعبير بـ﴿لَّيْسَ﴾ دون غيرها؛ لكونها تنفي الجنسَ كلَّه نفيًا مطلقًا، بينما الأدوات الأخرى قد تنفي الفعلَ أو

نفيُ انتفاعِ الإنسانِ بعملِ غيرِه نفيٌ شاملٌ محقَّقٌ

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 21/ 67، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 163، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 65.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 275، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 72.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 132.

الزمن فقط، كما أنَّ (ليس) تستعملُ مع الحقائق الثابتة، بينما (لا) أو (ما)، فتنفي الأفعالَ العابرة، ومِن ثمَّ فالنفي في الآية نفيٌ شاملٌ محقَّقٌ، بما يعني أنَّ السعيَ هو الطريق الوحيد لتحصيل المنفعة.

معنى اللام ودلالتها في: ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾:

لا ينتفعُ الإنسان، ولا يستحقُّ ثوابًا إلّا بسعيه

اللام في قوله: ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ للملك والإيجاب، أي: لا يجبُ للإنسان إلّا ما سعى، ولا يستحقُّ إلّا ما عمل، فإذا تصدَّق عنه غيره، فليس يجبُ له شيء، إلّا أنَّ اللهَ ﷻ يتفضَّلُ عليه بما لا يجبُ له، كما يتفضَّل على الأطفال بإدخالهم الجنَّة بغير عمل[1]، فاللامُ هنا لعود المنافع، و(على) لعود المضارِّ، تقول: هذا له، وهذا عليه[2].

معنى اللام ودلالتها في: (الإنسان):

ليس لأيِّ إنسان كائنًا من كان إلّا ما سعى

تعريفُ الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ للجنس، ووقوعه في سياق النفي يفيدُ العموم، والمعنى: أيُّ إنسانٍ كائنًا من كان لا يختصُّ به إلّا ما سعاه[3]، أو أن تكون عهديَّة، أي: ليس الكافر، وأمّا المؤمن؛ فله سعيه، وما يسعى له غيره، كما ورد في الأحاديث، وقيل: ليس للكافر من الخير إلّا ما عمله يثابُ عليه في الدُّنيا حتّى لا يبقى له في الآخرة خير[4].

سرُّ التَّعبير بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء:

لا سبيلَ لانتفاعِ الإنسان إلّا بعمل نفسه

أفادَ قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ الحصرَ؛ لاشتماله على النفي والاستثناء، فدلَّ على أنَّ الإنسان لا ينتفعُ إلّا بعمل نفسه، ولا يُجزى على عمله إلّا بقدرِ سعيه، ولا يزداد[5]، ولو قال: (ليس له ما لم يَسْعَ)؛ لكانت العبارةُ تنفي عنه فقط سعي غيره، ولا تثبتُ له

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 114.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 276.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 72، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 132.
(4) ابن عادل، اللباب: 18/ 206، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 132 - 133.
(5) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ص: 1881، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 167.

سعيه، بينما التَّعبيرُ بالنفي والاستثناء نفى عنه سعيَ غيره، وأثبتَ له سعيه[1]، وهذا أبلغ.

دلالة ﴿مَا﴾ بين الموصولة والمصدرية:

في الموصوليَّةِ مبالغةٌ في القصر، وفي المصدريَّةِ تأكيدٌ له

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ تحتملُ أنْ تكونَ مصدرية، أي: ليس له إلّا سعيه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾، أي: سوف يُرى المسعي، وتحتملُ أنْ تكون موصولة؛ للدَّلالة على العموم، بما يفيدُ المبالغةَ في الحصر، والمعنى: ليس له إلّا كلُّ ما سعى به، وفَعَلَه[2].

دلالة التعبير بالفعل الماضي ﴿سَعَىٰ﴾:

زيادةُ الحثِّ على السعي في العمل الصالح

في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ عبَّر بصيغةِ الفعل الماضي - الدالِّ على تحقُّق الوقوع وتقرُّره - دون المستقبل؛ لزيادة الحثِّ على السعي في العمل الصالح[3]، بأنْ يقرِّر أنْ ليس له إلّا ما قد سعى، وحصلَ، وفرغَ منه، وفي ذلك قطعٌ لتسويلات الشَّيطان وعِداته[4].

بلاغةُ التعبير بالمجاز المرسل، والكناية:

في المجاز والكناية تتميمٌ واحتراسٌ

أصلُ لفظِ السعي الوارد في قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾: المشي، فأطلقَ على العمل مجازًا مرسلًا على لفظ ﴿سَعَىٰ﴾، وكناية في جملة القصر، والمراد هنا عمَلُ الخَيرِ، بقَرينةِ ذِكرِ لامِ الاختِصاص، وأنْ جُعِلَ مُقابِلًا لقوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، والمعْنى: لا تَحصُلُ لأحدٍ فائدةُ عمَلٍ إلّا ما عمِلَه بنفْسِه مِن الأعمالِ الصّالحةِ، فلا يكونُ له عمَلُ غيرِه، وبهذا تكون الآية تتميمًا لقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، واحتراسًا من أنْ يخطرَ بالبال أنَّ المدفوعَ عن غير فاعله هو الوزر، وأنَّ الخيرَ ينالُ غير فاعله[5].

(1) ابن عادل، اللباب: 18/ 209.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 276، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 65.
(3) الزحيلي، التفسير المنير: 27/ 129.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 276.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 132.

دلالة العطف في: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ﴾:

سعيُ الإنسان سوف يُرى سواءٌ وردَ في الصحف أو لم يرد

يجوز أنْ تكون جملة: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ﴾ عطفًا على جملة: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فهي من تمام تفسير: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَاهِيمَ﴾، وقد تغيَّر الأسلوب بين الجملتين التَّركيبين؛ لاقتضاءِ المقام أن يقعَ الإخبار عن سعي الإنسان، بأنَّه يعلنُ به يوم القيامة – وذلك من توابع أنْ ليس للإنسان إلّا ما سعى – فلمّا كان لفظ ﴿سَعْيَهُۥ﴾ صالحًا للوقوع اسمًا لحرف (أنَّ) زالَ مقتضى اجتلابِ ضمير الشَّأن، فزال مقتضى (أنْ) المخفَّفة[1].

ويجوزُ أن تكون عطفًا على (ما) الموصولة من قوله: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَاهِيمَ﴾، فيكون معمولًا لباء الجرِّ، والتقدير: أمْ لم ينبَّأ بأنَّ سعيَ الإنسان سوف يُرى[2].

سرُّ التوكيد بـ(أنَّ):

وعـدٌ إلـهـي مـحـقَّـقٌ بـأنَّ سعيَ الإنسان سـوف يُـرى، ويُجازى عليه

أكَّدَ البيانُ القرآنيُّ رؤيةَ سعيِ الإنسان، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾، بحرف (أنَّ)؛ لإفادة تحقيقِ الخبر وتوكيده، وهو أنَّ سعيَ الإنسان لن يضيعَ، بل سوف يُرى، ويُجازى عليه؛ تأكيدًا للوعد الإلهي بذلك.

الغرض من التَّعبير بالمصدر مضافًا إلى الضمير:

تأكيدٌ ومبالغةٌ وإشعارٌ بالصِّلة الـوثـيـقـة بين السعي وصاحبه

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بالمصدر ﴿سَعْيَهُۥ﴾؛ للدَّلالة على التأكيد والمبالغة التي يقتضيها التَّعبير بالمصدريَّة، فيشملُ كلَّ سعي فكري أو عقدي، فعلي أو قولي أو جسدي، خفي أو ظاهر دون تحديد زمان أو كيفيَّة، ممّا يجسِّدُ السعي ككيان مادي يُرى، وقد أضافه إلى الضمير العائد إلى الإنسان، أي: سعي الإنسان سوف يرى، وفي

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 138 - 139.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 138 - 139.

هذه الإضافة إشعارٌ بالصلة الوثيقة بين السعي وصاحبه، ممّا يعزِّز المعنى في الآية، وهو أنَّه ليس لأحدٍ غيرُ سَعْيه.

دلالة حرف الاستقبال ﴿سَوْفَ﴾:

رؤيـــةُ سعي الإنسـان وغـدٌ مـؤكَّـدٌ واقـعٌ لا محالة

﴿سَوْفَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ حرفُ استقبال يفيدُ التَّحقُّق، والأكثر أنْ يرادَ به المستقبل البعيد[1]، والتعبير به؛ لإفادةِ أنَّ رؤيةَ سعي الإنسان وعدٌ مؤكَّدٌ لا خلفَ فيه، واقعٌ لا محالة، من غير شكٍّ، وإنْ طالَ المدى[2].

دلالة التَّعبير بالمضارع المبني للمفعول ﴿يُرَىٰ﴾:

عـمـومُ الـرّائـين وكـثرتـهـم أهـولُ وأخوفُ

جيء بالفعل ﴿يُرَىٰ﴾ بصيغة المضارع؛ لوقوعه مع ﴿سَوْفَ﴾، فالفعلُ سيقعُ في المستقبل، أي: يوم القيامة، وكان التَّعبير بصيغةِ المبني للمفعولِ؛ للتركيز على فعل الرؤية، ولإفادة عمومِ الرائين بما يشملُ رؤيةَ الملك سبحانه وجنوده، وهذا أخوفُ، ولإبهام الرائين وكثرتهم؛ لأنَّ الرائي كلَّما كان أكثرَ؛ كان الأمرُ أهولَ[3]، وفي هذا حثٌّ للمؤمن على العمل الصالح وتخويفٌ للكافر من العمل السيّئ.

بلاغة التَّعبير بـ ﴿يُرَىٰ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

رؤيـــةُ الأعـمـال بإشهار الشُّمعة تـــشـــريـــفٌ لـلـمـحـسـنـين وانـــكـــسـارٌ للمسيئين

الرؤيةُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ إمّا على الحقيقة، أي: إنَّ الإنسانَ يشاهد سعيه يوم القيامة حتى ينظرَ إليه، أي: يرى عمله في ميزانه، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف: 49]، ويراه كذلك الملائكة وأهل الموقف، ويطَّلعون عليه، فيجوز أن تُجسَّم الأعمال، فتصير مشاهدة - وأمور الآخرة مخالفة لمعتاد أمور الدنيا[4] - ليكون تشريفًا للمحسن، وسرورًا له وتوبيخًا للمسيء

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 139.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 72.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 73.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 139.

وحزنًا له[1]، ويجوز أن تُجعل علامات على الأعمال يعلن بها عنها، كما في قوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [التحريم: 8]، والتقدير: وأنَّ عنوان سعيه سوف يرى.

أو أنْ تكون الرؤيةُ مستعارةً للعلم لقصدِ تحقُّق العلم واشتهاره، بأنْ يكون ذلك بإشهار العمل والسعي، كما في قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۖ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: 49] الآية، وحكمةُ ذلك تشريفُ المحسنين بحسن السُّمعة وانكسارُ المسيئين بسوء الأحدوثة[2].

دلالة العطف بـ﴿ثُمَّ﴾:

عطفَ البيان الإلهيُّ ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ على ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الذي يدلُّ على التراخي الرتبي؛ لأنَّ حصولَ الجزاءِ أهمُّ من إظهاره أو إظهارِ المجزي عنه[3]، والتراخي يمكن أن يكون للجزاء، أو لتراخي الكلام، أي: ثم نقول: يجزاه[4].

حصولُ الجزاء أهمُّ من إظهاره أو إظهارِ المجزي عنه

دلالة التعبير بالمضارع المبني للمفعول ﴿يُجْزَىٰهُ﴾، وإسناده إلى الضمير:

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع المبني للمفعولِ ﴿يُجْزَىٰهُ﴾، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾؛ لإفادة تصويرِ الجزاء، وبناؤه للمفعول؛ للتركيز على الفعل وهو المجازاة، ولإفادة التخويف والتهويل؛ لأنَّ المخوَّف منه المجازاةُ مطلقًا لا من مُجازٍ معيَّن[5]، والضَّميرُ المرفوع في قوله: ﴿يُجْزَىٰهُ﴾ يعودُ على الإنسان، وضمير النصب عائدٌ إلى السعي ﴿سَعْيَهُۥ﴾، أي: يُجزى عليه، أو يُجزى به[6]، ويجوز أنْ يكون الضمير للجزاء، ثم فسَّره بقوله: ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾، أو أبدله عنه[7].

المخوَّفُ منه المجازاةُ مطلقًا لا من مجازٍ معيَّن

(1) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ص: 1883.
(2) الواحدي، التفسير والوسيط: 21/ 69.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 140.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 277.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 73.
(6) ابن عادل، اللباب: 18/ 206، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 140.
(7) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 106.

دلالة التعبير بـ﴿ٱلۡجَزَآءَ﴾ معرَّفًا وإعرابه:

كـلُّ إنـسـانٍ سيُجزى الجزاءَ الأوفـر الكـامل الأتمَّ من خيرٍ أو شرٍّ

اللامُ في قوله: ﴿ٱلۡجَزَآءَ﴾ هي لامُ الكمال التي تفيدُ المبالغة، أي: "الجزاء الأوفر الكامل الأتم، إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًّا؛ فشرٌّ"[1]، أي: إن كان خيرًا؛ فمع المضاعفة، وإنْ كان غيره؛ فعلى السواء لمن أراد اللهُ ذلك له، ويعفو عن كثير[2]، وانتصبَ ﴿ٱلۡجَزَآءَ﴾ على المفعول المطلق المبيِّن للنوع[3]، ويحتملُ أنْ يكون مفعولًا لـ﴿يُجۡزَىٰهُ﴾، وليس بمصدر؛ لأنَّه وصفه بالأوفى، وذلك من صفة المُجزى به، لا من صفة الفعل[4].

سرُّ وصف ﴿ٱلۡجَزَآءَ﴾ بـ﴿ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾:

مـن فـضـلِ الـلـه وعـدلـه مضاعفةُ الجزاءِ لـلـمـطـيـعـين والمـجـازاةُ بالمثل للعاصين

وصفَ البيانُ القرآنيُّ الجزاء بالأوفى، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾؛ ليشيرَ إلى فضلِ الله وعدله سبحانه، فالأوفى هو الأوفر والأتمُّ الأكمل، فإنْ كان جزاءً على الخير؛ فمع المضاعفة، وإنْ كان جزاءً على الشَّرِّ؛ فعلى السواء، أي: جزاءُ سيِّئةٍ بمثلها[5]، ويعفو عن كثير، وفي هذا وعدٌ للمؤمنين ووعيدٌ للكافرين.

دلالة صوغ ﴿ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾ على هيئة (أفعل) التفضيل:

الـجـزاءُ عـلى الـفـعـل مـن حسنٍ أو سيّئٍ موافقٌ للمجزي عليه

﴿ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾ اسمُ تفضيل من الوفاء، وهو التمامُ والكمال، والتفضيلُ مستعملٌ هنا في القوَّة، وليس المراد تفضيله على غيره، والمعنى: أنَّ الجزاءَ على الفعل من حَسَنٍ أو سَيِّئٍ موافقٌ للمجزي عليه[6].

دلالة العطف بـ(الواو):

الرُّجوعُ إلى الله أمرٌ مؤكَّدٌ سواءٌ ورد في الصحف أو لم يرد

القولُ في موقع جملة: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾، كالقول في موقع جملة: ﴿وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ﴾ سواء، فيجوز أنْ تكون هذه الجملة

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 168.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 73.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 140، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 168.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 106.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 73.
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 140.

معطوفة على جملة: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾، فتكون تتمَّةً لِما في صحف موسى وإبراهيم، ويكون الخطاب في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ التفاتًا من الغيبة إلى الخطاب، والمخاطَبُ غير معيَّن، فكأنَّه قيل: وأنَّ إلى ربِّه المنتهى، ويجوز أنَّها ليست ممّا اشتملتْ عليه صحف موسى وإبراهيم، ويكون عطفها عطْفَ مفرد على مفرد، فيكون المصدر المنسبك من أنَّ ومعمولها مدخولًا للباء، والتقدير: أم لم ينبَّأ بأنَّ إلى ربِّك المنتهى، والخطابُ للنبي ﷺ[1].

سرُّ التوكيد بـ(أنَّ):

انـتـهـاءُ الخلق إلى الله تعالى؛ ليجازيهم على أعمالهم أمرٌ ثابتٌ مؤكَّد

أكَّدَ البيانُ القرآنيُّ الخبرَ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ بحرف التوكيد: (أنَّ) وباسميَّة الجملة التي تَدلُّ على الثباتِ وقوَّةِ الحُكْمِ وبَقائِهِ، فانتهاءُ الخلق في رجوعهم إلى الله تعالى بعد الموت ليجازيهم على أعمالهم أمرٌ ثابتٌ مؤكَّدٌ، لا شكَّ فيه، وفي هذا التأكيد ردٌّ على المنكرين للبعث والجزاء، وفيه تهديدٌ بليغٌ للمسيء، بالإضافة إلى اطمئنان المؤمن بأنَّ عمله الخير لا يذهبُ سدى، بل يُجازى عليه، ومِن ثَمَّ فيه حثٌّ شديدٌ للمحسن، وأيضًا تسليةٌ لقلبه الشريف ﷺ.

معنى حرف الجر ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالته:

انـتـهـاءُ جميع الـخـلـق يـومَ المعاد إلى الـرَّبِّ سبحانه

﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ حرف جرٍّ، ومعناه في الآية: انتهاءُ الغاية الزمانيَّة والمكانيَّة، ومجيئه مع لفظ ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أفادَ معنى الانتهاء في الرجوع إلى الله، أي: مرجع الأمور يوم المعاد إلى ربِّك لا إلى غيره.

الغرض من التَّعبير بلفظ الربوبيَّة مضافًا إلى الضمير:

في اختيار البيانِ القرآني التعبير بلفظ الربوبيَّة ﴿رَبِّكَ﴾، في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ إشعارٌ باللطف والإحسان والعطاء

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 140.

والرعاية والعناية، فاللّهُ المربّي لكلِّ مخلوق بعامٍّ أفضاله وللنَّبي ﷺ بخاصٍّ نعمه وأشرف نواله، وإضافة (رب) إلى الضمير إذا كان الخطابُ للنبي ﷺ تشريفٌ وتسليةٌ لقلبه الشريف، أي: إلى ربِّك يا محمد المحسن إليك المنتهى، فلا تحزن[1]، وإن كان الضميرُ عامًّا، تقديره: إلى ربِّك أيُّها السامع أو العاقل؛ فيكون تهديدًا بليغًا للمسيء، وحثًّا شديدًا للمحسن[2].

في الربوبيَّة إشعارٌ باللطف والإحسان، وفي الإضافة تشريفٌ وتسليةٌ

بلاغة التعريض في المتضايفين ﴿رَبِّكَ﴾:

في إضافة الربِّ إلى ضمير النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾؛ تعريضٌ بالتهديدِ لمكذبيه؛ لأنَّ شأنَ الربِّ الدفاعُ عن مربوبه، فربُّك هو ربُّ الأرباب ومسبِّب الأسباب[3]، وإنْ كان الخطابُ عامًّا تقديره إلى ربِّك أيها السامع أو العاقل؛ ففيه تهديدٌ بليغٌ للمسيء؛ لأنَّ مرجع الأمور يوم المعاد إلى الله، فيحاسبه على النقير والقطمير.

تهديدٌ للمكذِّبين؛ لأنَّ شأنَ الرَّبِّ الدفاعُ عن مربوبه

معنى اللام ودلالتها في: ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾:

لام ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ يحتملُ أنْ تكون عهديَّة؛ إذا كان المراد بالمنتهى المرجع إلى الله بالبعث حسًّا، والمعنى: وأنَّ إلى ربِّك المنتهى الموعود المذكور في القرآن وفي كلام النبي ﷺ ويحتملُ أنْ تكون جنسيَّة تفيدُ العموم، أي: إلى الربِّ كلُّ منتهًى[4]، ويحتملُ أن تكونَ عوضًا عن المضاف إليه، وهو الخلائق[5].

إلى الله المرجعُ للحساب وإليه كلُّ منتهى سبحانه

بلاغة التعبير بالمجاز في لفظ ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾:

أطلقَ البيانُ القرآنيُّ الانتهاءَ إلى الله في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 73، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 141.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 278، وابن عادل، اللباب: 18/ 210.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 141.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 279.
(5) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 18/ 298.

إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾؛ مجازًا عن المرجعِ والمصير إلى الله سبحانه يومَ القيامة برجوع الخلائق حسًّا بالبعث، ومعنًى بالعمل والعلم، والوقوف بين يديه سبحانه للحساب والجزاء[1]، أو مجازًا عن الرجوع إلى حكمه المحضِ الذي لا تلابسهُ أحكامٌ هي في الظاهر من تصرُّفات المخلوقات ممّا هو شأنُ أمور الدنيا، فالكلام على حذف مضاف دلَّ عليه السياق، أو أنْ يكون المنتهى مجازًا عن انتهاءِ السير، بمعنى الوقوف؛ لأنَّ الوقوفَ انتهاءُ سير السائر، ويكون الوقوفُ تمثيلًا لحالِ المطيع لأمر الله تشبيهًا لأمر الله بالحدِّ الذي تُحدَّد به الحوائط، كما عبَّر عن هذا المعنى بالوقوف عند الحدِّ في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة: 229]، والمعنى: التَّحذير من المخالفة لِما أمرَ اللهُ، ونهى، أو مجازًا عن انتهاء دلالة الموجودات على وجود الله ووحدانيته، فاللهُ هو المنتهى الذي ينتهي إليه استدلال العقل[2].

المنتهى إلى الله بالرجوع إليه يومَ القيامة أو إلى حكمه وأوامره ومعرفته في الدنيا

الغرض من تقديمِ شبهِ الجملة:

قدَّم القرآنُ الخبرَ الجار والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾؛ لإفادة الاختصاص والقصر، أي: انتهاءُ الخلقِ في رجوعهم بعد الموت إلى ربِّك المحسن إليك لا إلى غيره لا استقلالًا، ولا اشتراكًا، فيجازيهم بأعمالهم؛ إذ لا إله إلّا هو[3]، كما أنَّ في التقديم مراعاةً للفاصلة القرآنية في الآيات.

انتهاءُ جميع الخلق إليه سبحانه لا إلى غيره

دلالة العطف بالواو في: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ﴾:

عَطَفَ البيانُ القرآنيُّ جملة: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾، على جملة: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ وما قبلها، أي: وممّا في صحف

انتقالٌ من الاعتبار بأحوال الآخرة إلى الاعتبار بأحوال الدنيا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 73.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 141.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 73، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 168.

موسى وإبراهيم أيضًا أنَّهُ - ﷺ - هوَ وحده أضْحَكَ وأبْكَى[1]، أو يكون في العطف انتقالٌ من الاعتبار بأحوال الآخرة إلى الاعتبار بأحوال الحياة الدنيا[2]، وتأكيدٌ على قدرةِ الله تعالى المتصرِّف في كلِّ شيء، فالمرجعُ والمصير إليه سبحانه وهو المتصرِّف في المشاعر من ضحكٍ وبكاء.

سرُّ التوكيد بـ(أنَّ)، وعود الضمير فيه ودلالته:

تأكيدُ أنَّ خالق قـوَّتَي الضحك والبكاء هو الله تعالى

أكَّدَ البيانُ القرآنيُّ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ بحرف التوكيد: (أنَّ) الذي يدلُّ على قوَّةِ الحُكْمِ وثباته، وقطعِ أيِّ شكٍّ بقدرة الله تعالى ممّا يقوّي الإيمان بوحدانيته وتدبيره؛ لأنَّه لَمّا كانت التأثيرات الإدراكية تُحال على أسبابها[3]؛ أكَّد أنَّ الضحك والبكاء من الاختصاص الإلهي، وأنَّها حقيقةٌ مطلقة ثابتة، فالمضحكُ والمبكي هو الله تعالى المتصرِّف بمشاعر الإنسان، والضمير في (أنّه) يعودُ على لفظ ﴿رَبِّكَ﴾ في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾، فإسنادُ الإضحاك والإبكاء إلى الله تعالى؛ لأنَّه خالق قوَّتي الضحك والبكاء في الإنسان.

عود ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ ووجه التَّعبير به:

قصرُ صفةِ خلق أسباب الضحك والبكاء على الله تعالى

ضميرُ ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ عائدٌ إلى ﴿رَبِّكَ﴾، من قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾، وقد أفادَ ضميرُ الفصل قصرَ صفة خلقِ أسباب الضحك والبكاء على الله تعالى أي: هو وحده لا غيره أضحكَ، وأبكى، والقصرُ لدفع توهُّم أنَّ للمخلوق مدخلًا في الإضحاك والإبكاء؛ لإبطال الشَّريك في التَّصرُّف، فتبطل الشركة في الإلهية، وهو قصر إفراد؛ لأنَّ المقصود نفي

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 168.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 142.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 73.

تصرُّف غير الله تعالى، وإنْ كان هذا القصر بالنَّظر إلى نفس الأمر قصرًا حقيقيًّا لإبطال اعتقاد أنَّ الدهر متصرِّف[1].

دلالة التعبير بالفعلين الماضيين ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾:

الضحكُ والبكاء سنَّة إلهية ثابتة

جاء التعبيرُ بفعلي ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ بصيغة الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّق وقوع هذه الأفعال، فهي من الأفعال المحقَّقة التي خلقها الله، وخلقَ أسبابها وقوَّتها، ممّا يوحي بأنَّها سنَّةٌ إلهية ثابتة، فما يعمله الإنسان من ضحك وبكاء وغيره فبقضائه وخلقه، فهو خالقُ طبائع الموجودات التي تجلبُ أسباب الضحك والبكاء من سرورٍ وحزن[2].

علَّة تخصيص هذين الوصفين بالذِّكر ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾:

الضحكُ والبكاءُ من خواص الإنسان، ويدلّان على الصانع الحكيم

خصَّ البيانُ القرآني الضحكَ والبكاء بالذِّكر؛ لأنَّهما أمران من خواصِ الإنسان، ولا يُعلَّلان، فلا يقدرُ أحدٌ تعليلَ خاصيةِ الضحك والبكاء في الإنسان دون الحيوان[3]، وإذا لم يُعلَّلْ بأمرٍ لا بدَّ له من موجدٍ؛ فهو الله تعالى، بخلاف الصحة والسقم فيمكن تعليل سببهما باختلال المزاج وخروجه عن الاعتدال[4]، كما أنَّ ذكر الضحك والبكاء يفيدُ الإحاطة بأحوال الإنسان بإيجاز، ويرمز إلى أسباب الفرح والحزن، ويذكِّر بالصانع الحكيم، ويرشدُ إلى الإقبالِ على طاعته والتضرُّع إليه[5].

الغرض من الإسناد:

الله خالق قوَّتي الضحك والبكاء في الإنسان والقاضي بأسبابهما

إسنادُ الإضحاك والإبكاء إلى الله تعالى؛ لأنَّه خالق قوَّتي الضحك والبكاء في الإنسان، وذلك خلقٌ عجيب، وقضى أسباب الضحك والبكاء، فهو خالق طبائع الموجودات، التي تجلب أسباب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 74، وحاشية الصاوي على الجلالين، ص: 1883، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 142 - 143.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 107، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 143.

(3) الزحيلي، التفسير المنير: 27/ 131.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 279.

(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 142.

الضحك والبكاء من سرور وحزن[1]، أي: خلق ما يسرُّ من الأعمال الصالحة، وما يسوءُ، ويحزنُ من الأعمال السيئة، وهذا دليل القدرة الإلهية[2].

سرُّ تقديم (الإضحاك) على (الإبكاء):

في التقديم مزيد امتنان بفضل الله تعالى وقدرته ورحمته

قدَّم القرآن الضحك على البكاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾؛ مراعاةً للفاصلة القرآنية، ولأنَّ فيه امتنانًا بزيادة التَّنبيه على القدرة الإلهية[3]، والرحمة الربانية، فالله تعالى يبدأ بالنِّعمة قبل المحنة، كما أنَّ الضحك يناسب حال النَّعيم في الجنَّة، والبكاء يناسب حال أهل النار وعذابهم، والترغيب مقدَّم على الترهيب، ويبعث على التَّفاؤل، ويلائم الفطرة الإنسانية.

الغرض من حذف مفعولي ﴿أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾:

فِعْلا الإضحاك والإبكاء مسوقان لقدرة الله لا لبيان المقدور

حذفَ البيان الإلهي مفعول فعلَي ﴿أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾؛ لأنهما مسوقتان لقدرة الله لا لبيان المقدور، فلا حاجة إلى المفعول[4]؛ ولأنَّ القصد إلى الفعلين لا إلى مفعوليهما؛ فالفعلان منزَّلان منزلة اللازم، أي: أوجد الضحك والبكاء[5]، وفي حذف المفعول أيضًا تعدُّدٌ للمفعول وعمومه، ولهذا تعدَّدتْ أقوالُ العلماء في تقديره، فقالوا: أضحك الله أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار، وقيل: أضحك من شاء في الدنيا، بأنْ سرَّه، وأبكى من شاء، بأنْ غمَّه، وقيل: أضحك قلوب المؤمنين والعارفين بشمس معرفته، وأبكى قلوب الكافرين والعاصين بظلمة نكرته ومعصيته، وقيل: أضحك الله المطيعين بالرَّحمة،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 116، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 143.
(2) الزحيلي، التفسير المنير: 27/ 131.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 143.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 279.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 143.

وأبكى العاصين بالسخط، وقيل: أضحك المؤمن في الآخرة، وأبكاه في الدنيا، وقيل: أضحك الله أسنانهم، وأبكى قلوبهم[1].

بلاغة التعبير بالطباق بين ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾:

في الاعتبار بخلق الشيء وضدِّه إشارةٌ إلى دقائق حكمة الله تعالى

في الآية محسِّن الطباق؛ إذ جمعَ البيانُ القرآني بين الضحك والبكاء، وهما ضدان، وفي الاعتبار بخلق الشيء وضدِّه إشارةٌ إلى دقائق حكمة الله تعالى[2]، وقدرته المطلقة على خلق المشاعر المتقابلة، وانفراده بالتصرُّف في مشاعر البشر.

بلاغة العطف بالواو في: ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾:

اعتبارٌ بانفراده سبحانه بالقدرة على الإماتة والإحياء، كما في الإضحاك والإبكاء

عَطَفَ البيانُ القرآنيُّ جملة: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾، على جملة: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ وما قبلها من الجمل، أي: وممّا في صحف موسى وإبراهيم أيضًا أنَّهُ - ﷻ - هوَ وحده أمات وأحيا؛ إذ انتقلَ من الاعتبار بانفراد الله بالقدرة على إيجاد أسباب المسرَّة والحزن، وهما حالتان لا تخلو عن إحداهما نفس الإنسان، إلى العِبرة بانفراده تعالى بالقدرة على الإحياء والإماتة[3]، غير أنَّ الله تعالى في الأوَّل بيَّن خاصة النوع الذي هو أخصُّ من الجنس، فإنَّه أظهر وعن التعليل أبعد، ثم عطف عليه ما هو أعمُّ منه ودونه في البعد عن التعليل، وهي الإماتة والإحياء[4].

سرُّ التوكيد بـ(أنَّ)، وعود الضمير فيه:

التَّأكيدُ على أنَّ الإماتة والإحياء من الاختصاص الإلهي

أكَّد البيان القرآني قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ بحرف التوكيد: (أنَّ)، الذي يدلُّ على قوَّةِ الحُكْم وثباته، وقطع أي شكٍّ بقدرة الله تعالى، وبأنَّه هو المتصرف الوحيد لا شريك له؛ لأنَّه لمّا كانت الإماتة والإحياء أعظمَ تنافيًا بما مضى، فكانت القدرة على

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 117.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 143.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 144.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 279.

إيجادها في الشخص الواحد أعظمَ ما يكون، وكان ربَّما نُسب الموت إلى مَن قتل، ونسب الإحياء إلى من أطلق مَن وجب قتله[1]؛ جاء التأكيد على أنَّ الإماتة والإحياء من الاختصاص الإلهي، وأنَّها حقيقة مطلقة ثابتة، والضمير في (أنّه) يعود إلى ما عاد عليه الضمير في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾، فالجمل معطوفة على بعضها، أي: يعود على لفظ ﴿رَبِّكَ﴾، في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾.

دلالة التَّعبير بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾، في قوله: ﴿هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾:

القول في ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾، كالقول في ضمير الفصل في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾، فقد أفاد القصر والاختصاص، أي: اللّهُ لا غيره الذي له القدرة على الإحياء والإماتة، وجاء التأكيد بضمير القصر؛ ردًّا على أهل الجاهلية، الذين يسندون الإحياء والإماتة إلى الدهر، فقالوا: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: 24][2].

قصر القدرة على الإحياء والإماتة على الله وحده ردًّا على المشركين

دلالة التعبير بالفعلين الماضيين ﴿أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾:

عبَّر البيان القرآني بفعلَي ﴿أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ بصيغة الماضي؛ للدلالة على تحقُّق وقوع هذه الأفعال، فهي من الأفعال المحقَّقة الوقوع، ممّا يوحي بأنَّها سنَّة إلهية ثابتة، فالإماتة والإحياء مقدَّران في علم الله، وواقعان لا محالة، وقد وقعتْ كثيرٌ من هذه الأفعال، وستقعُ في المستقبل، فيكون تنزيلًا لمنتظر الوقوع منزلةَ الوقوع، وكذلك تناسبًا مع فعلي أضحك، وأبكى بالماضي، وتناسبًا مع الفاصلة القرآنية.

فِعْلا الإماتةِ والإحياء مقدَّران في علم الله وواقعان لا محالة

براعة إنزال فعلي الإماتة والإحياء منزلة اللازم:

فعلا ﴿أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ منزَّلان منزلةَ اللازم، كما تقدَّم في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾؛ لأنَّ المقصودَ إظهارُ بديعِ القدرة على

المقصود إظهارُ بديع القدرة الإلهية على الإماتة والإحياء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 74.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 74، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 144.

هذا الصُّنع الحكيم، مع التَّعريض بالاستدلال على كيفيَّة البعث وإمكانه، حيث أحاله المشركون، وشاهده في خلقِ أنفسهم[1].

سرُّ تقديم الإماتة على الإحياء:

قدَّم البيان القرآني في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ الإماتةَ على الإحياء؛ لأنَّ الإماتة أدعى إلى حسن العمل[2]، ولأنَّ العبرةَ بالإماتة أوضحُ، والإلباس في الموت أكبر، وللرَّدِّ عليهم لقولهم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: 24]، وكذلك لمراعاة الفاصلة القرآنية[3].

العبرةُ بالإماتة أوضحُ وأدعى إلى حسن العمل

بلاغة التعبير بالطباق بين ﴿أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾:

في الآية محسِّنُ الطباق؛ إذ جمعَ البيان القرآني بين الإماتة والإحياء، وهما ضدان[4]، وفي نسبة خلق الشَّيء وضدِّه إلى الله تعالى إثباتٌ لقدرته المطلقة سبحانه وتفرُّده بخلق الموت والحياة، ومن ثمَّ استحقاقه للعبادة، ونفي الشريك له.

في نسبة الإماتة والإحياء له سبحانه إثباتٌ لقدرته المطلقة

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنباء والإخبار:

النَّبأُ أخصُّ من الخبر؛ فالنَّبأ خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به علمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، ولا يُقالُ للخبر في الأصل: نَبَأٌ حتى يتضمَّنَ هذه الأشياء الثَّلاثة، وحقُّ الخبرِ - الذي يُقال فيه: نَبَأٌ - أنْ يتعرّى عن الكذب، كالتَّواتر، وخبرِ الله تعالى، وخبرِ النبي ﷺ، وسُمّي النبي؛ لكونه منبِّئًا بما تسكن إليه العقولُ الذَّكيَّة[5]، والنَّبأُ لا يكون إلّا للإخبار بما لا يعلمه المخبَر، ويجوز أن يكونَ الخَبر بما يعلمه، وبما لا يعلمه، والإنباءُ عَن الشَّيء أيضًا قد يكون بغَير حمل النَّبأ عَنه،

ما في صحف موسى وإبراهيم أخبارٌ مهمَّة عظيمةٌ صادقةٌ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 144.
(2) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 18/ 299.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 74 - 75، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 144.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 144.
(5) الراغب، المفردات: (نبأ).

تَقول: هَذا الأمر ينبئُ بكَذا، ولا تَقول: يخبرُ بكَذا؛ لأنَّ الإخبار لا يكون إلّا بحمْل الخَبَر[1]، وقد ناسبَ هنا التَّعبير بالنَّبأ؛ لكون ما في صحف موسى وإبراهيم أخبارًا مهمَّةً عظيمة صادقة، لا يعلمها النَّبيُّ ﷺ لولا أن أخبره اللّٰهُ بها.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 41.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والخمسون،
سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 58 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-62-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 58 : المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-62-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4238337 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"